النظم القرآني في آيات البعث- نماذج من الإعجاز البياني-

أ. نبيل ربيع
جامعة باتنة 1

د. سامية ديبي
جامعة باتنة 1

الملخص:

يتناول البحث مفهومي النظم وآيات البعث مع التطرق لنماذج من التصوير البياني في آيات البعث كالتشبيه والاستعارة والكناية، وذلك بغية إدراك مكانة الإعجاز القرآني عامة، والبياني خاصة، وأثره في بيان بلاغة الأسلوب القرآني في عرض الموضوعات كما يهدف البحث إلى بيان بلاغة القرآن الكريم في كل موضوعاته، فمثلا موضوع البعث يغلب عليه الجانب العقائدي، لكن لابد من إثبات بلاغة القرآن في التعرض لهذا الموضوع وطرحه بأسلوب بليغ ومعجز.

Abstract:

This paper deals with the concepts of systems and the verses of the Baath with models of graphic imaging of the Baath Kalchbah and metaphor and metonymy verses addressed, in order to recognize the status of Quranic miracle public, private, and its impact on the statement of the eloquence of the Quranic method in the presentation of themes and graphic as research aims to release the eloquence of the Qur'an in all themes for example, the subject of the Baath dominated by the ideological side, but you must prove the eloquence of the Qur'an in the exposure of the subject and put forward an eloquent manner and miraculous.

مقدمة

لقد أيّد الله- سبحانه وتعالى- نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بمعجزة القرآن الكريم، هذا الأخير الذي سحر كل قارئه، لما احتواه من نظم عجيب وتأليف بديع، أعجز كل الباحثين والدارسين المتقدمين منهم والمتأخرين، وذلك لما تضمنه من أسرار إعجازية ولطائف بيانية وحكم ربانية.

كما أن موضوع البحث المراد دراسته والموسوم ب: النظم القرآني في آيات البعث- نماذج من الإعجاز البياني- من أهم المواضيع التي تخدم هذا الجانب في الدراسات الإسلامية، وعلى الخصوص الدراسات القرآنية، من خلال هذه الرؤية الأولية للعنوان أجدني في مواجهة جملة من التساؤلات نجمل القول فيها كالتالي:

- ما هي أبرز الجوانب البيانية في آيات البعث؟ وفيما تتمثل خصائص وأغراض تلك الجوانب؟.
- ما تأثير الصور البيانية على القرآن الكريم، وفيما يتمثل سر الإعجاز فيه؟
- ما هي أبرز الجوانب البيانية في آيات البعث؟.

والجواب على هذه الإشكالية يقتضي التأصيل للموضوع، ببحث مفهوم النظم والآية والبعث والبيان، وأهم طرق التصوير البياني التي اشتملت عليها آيات البعث، ولدراسة هذا الموضوع ارتأيت طرحه وفق ما يلي:

المطلب الأول: مفهوم النظم، الآية، البيان، الإعجاز البياني

يمثل هذا المطلب مدخل نظري تأصيلي لتعريف بالمصطلحات ومفاهيم عنوان البحث، التي هي بمثابة مفاتيح الموضوع، لذلك كان من الوجوب الوقوف عند مصطلحات ودلالات الكلمات الأساسية المتمثلة في: النظم- الآية- الإعجاز البياني- وضبط مفاهيمها.

الفرع الأول: مفهوم النظم

أ- في أصل اللغة: تكاد تتفق معاجم اللغوية على مفهوم النظم بمعاني: التأليف، والجمع، والاتساق، والتحسين.

جاء في لسان العرب: " النظم: التأليف، ونظمته نظما ونظاما، ونظمته فانتظم وتنظم، ونظمت اللؤلؤ. أي جعلته في السلك، والتنظيم مثله والنظام: ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره، والنظام الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ، وكل خيط ينظم به اللؤلؤ أو غيره فهو نظام، وجمعه نُظُمٌ"[1].

وهذا التعميم يدخل في تأليف الكلام ونظم الشعر بالمعنى اللغوي لهذه الكلمة، من الإشارة إلى كون هذا الاستعمال للنظم مجازيا.

ب- اصطلاحا: يعرفه الخطيب القزويني بقوله: "النظم تآخي-والصحيح توخي-معاني النحو فيما بين الكلم، على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام"[2]

وقد عرفه علي بن محمد الجرجاني-من أبناء القرن التاسع الهجري- مستمدا مفهوم عبد القاهر للنظم، حيث يقول: " النظم هو تأليف الكلمات والجمل مرتبة المعاني متناسبة الدلالات حسب ما يقتضيه العقل، وقيل الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل وهي العبارات التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة"[3].

الفرع الثاني: مفهوم الآية

أ- في أصل اللغة: لقد تباينت آراء أصحاب المعاجم العربية في تحديد مفهوم "الآية: وأهم هذه الآراء:

يرى ابن فارس أن"(أبي)؛ الهمزة والياء والياء أصل واحد وهو النظر بمعنى الانتظار؛ يقال: أي تنكث، واستشهد على ذلك بقول الشاعر:

قِـفْ بالـدِيّار وُقـوفَ زَائِـر وتَـأيْ إنّـك غَيـر صَـاغِر

وعن ابن الأعرابي: تأييت الأمر؛ انتظرت مكانه"[4].

وعلى هذا الأساس تكون الآية متصفة بضرورة الانتظار عندها، والنظر فيها بالمكث والتلبث، كما يقف القارئ عندها وجوبا.

ب- في الاصطلاح: لقد تعددت الآراء واختلفت التحديدات، كما اختلفت وجهات النظر إلى الآية وأسلوب تناولها، وأهم هذه الآراء هي:

قال الجعبري: " حد آية القرآن مركب من جمل، ولو تقديرا ذو مبدأ أو مقطع مندرج في سورة"[5].

من هذا المنطلق تكون الآيات تمثل وتشكل عبر وعلامات لمن أراد الاعتبار والهداية، كما يمكن أن نصوغ تعريف مبني على التعريفات السابقة، فنقول: الآية القرآنية هي وحدة محددة شرعا من القرآن الكريم.

الفرع الثالث: مفهوم البيان

أ- في الأصل اللغوي: " معناه الظهور والوضوح والإفصاح، يقال: بان الشيء بيانا: اتضح فهو بيّن... وأبنته: أوضحته، واستبان الشيء: ظهر"[6].

وروي ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**إنَّ مِن البَيانِ لسِحرًا، وإنَّ مِن الشِعر لحِكمًا**)[7].

وعليه فإن البيان يعني الوضوح والكشف عن الأشياء، وإظهار المقصود بأبلغ لفظ ممكن.

ب- إصطلاحا: البيان عند الإمام الشافعي (150-204هـ): " هو اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول متشعبة الفروع، فأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعبة أنها بيان لمن خوطب بها ممن نزل القرآن بلسانه، متقاربة الاستواء عنده، وإن كان بعضها أشد تأكيد بيان من بعض، ومختلفة عند من يجهل لسان العرب"[8].

نلمح من التعريف أن الأصولي يجعل من النص القرآني دليلا على المعاني، والذي به يحاول وضع أصول (قوانين) لاستكشافها كما أنه تأثر بالمفهوم الكلامي الذي يجعل الكون دليلا على وجود الله وقدرته سبحانه وتعالى.

البيان عند أبي عثمان الجاحظ (163-255هـ): " اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير"[9]. كما يعرفه في موضع آخر: " هو الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي"[10].

فكل دلالة دلت على معنى فهي بيان، والغاية في ذلك هي الفهم والإفهام؛ ولهذا أعقب تعريف يوضح ما قلناه: " مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[11].

الفرع الرابع: مفهوم الإعجاز البياني

يتناول هذا العنصر تعريف الإعجاز،، في اللغة والاصطلاح، ثم تعريف كل منهما كمصطلح مركب.

أولا: مفهوم الإعجاز البياني

قبل التطرق إلى تعريف الإعجاز في الاصطلاح، فلا بد من معرفة معناه اللغوي.

أ- الإعجاز في اللغة: " مشتق من العجز، والعجز الضعف، أو عدم القدرة، وهو مصدر أعجز بمعنى الفوت أو السبق"[12].

ومن الإعجاز تشتق لفظة المعجزة، والتي هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، دال على صدق الرسول في دعواه.

ب- في الاصطلاح: يعرفه الأستاذ محمد علي الصابوني بقوله: " إثبات عجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله، وليس المقصود من إعجاز القران هو تعجيز البشر لذات التعجيز أي تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن، فإن ذلك معلوم لدى كل عاقل، وإنما الغرض هو إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صادق، وكذا سائر معجزات الأنبياء الكرام"[13].

ج- مفهوم الإعجاز البياني: "هو لون ووجه من وجوه الإعجاز القرآني، يعتمد على الترتيب البديع لكلمات القرآن الكريم في جملها من جهة، واختيار تلك الكلمات من جهة أخرى، ثم ترتيب الآيات والجمل في السورة على نمط فريد ومتكامل".

لذلك نجد أن القرآن الكريم تحدى العرب وأعجز ملكتهم البيانية، التي كانت سجية وفطرة فيهم، لأنه فاقهم في الأسلوب والسياق المبني على اجتماع الألفاظ وترتيبها وفق نمط معين على سبيل الإعجاز والقصد في توظيف الكلمات والوفاء بالمعنى.

المطلب الثاني: التصوير البياني في آيات " البعث"

يمثل هذا المطلب دراسة تطبيقية بحتة، يعبر عن سيميائية العنوان وفحوى الموضوع، مبرزا فيه أهم الجوانب البيانية التي احتوتها آيات البعث، كأسلوب التشبيه والاستعارة والكناية.

الفرع الأول: البعث (مفهومه وروده في القرآن الكريم)

في هذا الفرع نتناول المعنى اللغوي والاصطلاحي للبعث، وروده في القرآن الكريم.

أولا: مفهوم البعث

أ -في أصله اللغوي: تأتي كلمة بَعَثَ في اللغة ويقصد بها أحد معنيين، إما الإرسال وإما الإثارة، أما المعنى الأول فقد جاء في لسان العرب: بعثه يبعثه ارسله وحدهن وبعث به: أرسله مع غيره، وابتعثه أيضا أي أرسله... والجمع بُعثان"[14].

أما المعنى الثاني، فقد جاء في القاموس المحيط: " بعث الباء والعين والثاء أصل واحد وهو الإثارة، ويقال: بعثت الناقة أي أثرتها قال ابن أحمد:

فَبعثتها تقُص المقَاصِر بَعدَما كَربَت حَياة النَّار للمُتنَوّر[15]

فالبعث في كلام العرب إذا على وجهين أحدهما الإرسال والآخر الإثارة، والبعث أيضا: الإحياء من الله للموتى ومنه قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٥٦)﴾ [البقر: 56]، أي أحيينـاكم، كمـا يطلـق أيضـا على الجـيش، يقـول صـاحب تـاج العـروس: " والبعـث الجـيش... والبعوث: الجنود يبعثون إلى الثغور"[16].

ب- في الاصـــطلاح: أما في الاصطلاح فقد جاء في تعريفه على أنه: " إحياء الله تعالى للموتى في قبورهم، وإخراجهم منها بعد جمع أجزائهم الأصلية المعدومة، والتي من شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره بأعيانها وأعراضها، وردّ أرواحها إليها"[17]، حيث يعاد خلق نفس الجسم الذي كان حيا في الدنيا، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** (١٠٤)﴾ [الأنبياء: 104]، فالبعث بمعنى الإخراج، أي: إخراج الناس من قبورهم بعد موتهم[18].

فالبعث إعادة إحياء الله تعالى للموتى في قبورهم، ويكون ذلك بعد النفخة الثانية، فتحيا كل الخلائق للحشر والحساب، وهو معتقد يُقر به المسلمون وبعض طوائف أهل الكتاب.

ثانيا: "البعث" في سياقه القرآني[19]:

ورد ذكر لفظة البعث بصيغ متعددة من القرآن الكريم، فقد ورد بصيغة المصدر في أربعة مواضع مرتين في موضع واحد من سورة الروم، في قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(٥٦)﴾ [الروم: 56] وفي الثانية ورد قوله تعالى: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(٥٦)﴾ [الروم: 56]، وموضع في سورة الحج في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾[الحج: 5]، وموضع الرابع في قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)﴾[لقمان: 28].

كما ورد في صيغة اسم المفعول في تسعة مواضع، مرتين في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩)﴾ وفي موضع ثاني قوله تعالى: (ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨)﴾، [الإسراء: 49-98].

ومرتين كذلك في سورة المؤمنون في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾، وفي موضع ثان جاء قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢)﴾ [المؤمنون: 37-82]، وموضع في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(١٦)﴾ [الصافات: 16]، وموضع في الواقعة في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧)﴾[الواقعة: 47]، وموضع في سورة المطففين في قوله تعالى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤)﴾[المطففين: 4].

أما فيما يخص المواضع ورود مصطلح البعث في القرآن الكريم فسأكتفي بذكر اسم السورة ورقم الآية التي ورد فيها كما هو في الجدول، دون التعرض لاشتقاقات لفظه:

اسم السورة	رقم الآية	اسم السورة	رقم الآية
البقرة	260-259-243-56-28	الروم	56
الأنعام	36	لقمان	28
الأعراف	167-57-14	فاطر	9
هود	7	يس	83-79-33
الرعد	5	الصافات	144-16
الحجر	36	ص	79
الإسراء	98-51-49	فصلت	39
الكهف	19	الشورى	29-9
مريم	36-33-15	ق	16
طه	55	الواقعة	72-47
الحج	7-5	المجادلة	18-6
المؤمنون	100-82-37-16	القيامة	40-36-4-3
الشعراء	87	المطففين	4

الفرع الثاني: التصوير البياني في آيات البعث

لقد تحدث الجرجاني عن قيمة البيان ومكانته فقال: "ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا، وأسبق فرعا، وأحلى جنى، وأعذب وردا، وأكرم نتاجا، وأنور سراجا من علم البيان، الذي لولاه لم ترى لسانا يحوك الوشي ويصوغ الحلي...، ولبقيت المعاني مستورة ولما أنبتت لها يد الدهر صورة، ولاستوى الخفاء على جملتها"[20].

وعليه فالبيان هو ميزة اللغة العربية ومفخرها، وهو ما نلمحه في القرآن الكريم الذي أنزل بلسان عربي مبين، مستخدما جل أنواع البيان من تشبيه واستعارة وكناية استعمالا واستخداما بليغا معجزا، وعليه جاء هذا المطلب في ثلاثة عناصر، تناولت فيها أسلوب التشبيه والاستعارة والكناية على التوالي.

أولا: أسلوب التشبيه

وهو من أروع علوم البلاغة، وأقربها رحما بالخاطر، كما أنه نزهة القارئ ومتعة السامع، وبستان العقل. قال عنه صاحب الطراز: " واعلم أن التشبيه هو بحر البلاغة، وأبو عذرتها، وسرها ولبابها وأسنان مقلتها"[21].

وقبل التطرق لنماذجه، لابدا من معرفة معناه اللغوي والاصطلاحي.

أ-في أصله اللغوي: جاء في لسان العرب: " مادة شبه: شبه والشبه والشبيه: المثل، والجمع أشباه، وأشبه الشيء للشيء: ماثله: وفي المثل: من أشبه أبه فما ظلم، وأشبه الرجل أمه، وذلك إذا عجز وضعف... وأشبهت فلانا وشابهته وأشبه عليه وتشابه الشيئان واشتبها: أشبه كل واحد منها الآخر، وفي التنزيل: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)**﴾ [الأنعام: 99]، والمتشابهات: المتماثلات، والتشبيه التمثيل"[22].

ب- إصطلاحا: عرفه القزويني بقوله: "هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى بإحدى أدوات التشبيه لا على وجه الاستعارة التحقيقية ولا المكانية ولا التجريد، فدخل فيه ما يسمى تشبيها وهو ما ذكرت فيه أداة التشبيه، كقولنا: زيد كأسد بحذف زيد لقيام فرينة"[23].

ولنا في آيات البعث نماذج عدة منها قوله تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)** ﴾ [يونس: 45]، حيث وقع التشبيه في الآية الكريمة، وهي صورة ذلك اليوم العظيم إلى نفوس المنكرين للبعث، فهاهم اليوم يحشرون من قبورهم بعد ذلك الدهر الطويل، الذي مكثوا فيه بين الحفر، ولكن الهول الشديد والحظب الجليل، قد أنساهم طول مكثهم تحت التراب، فهم في ذلك اليوم يحشرون مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة من النهار[24]، أي كأنهم لم يلبثوا في قبورهم إلا ساعة من النهار، وذلك لهول ما يرون من البعث.

فالمشبه في هذه الآية الكريمة هو حالهم يوم البعث، والمشبه به هو حال من لم يلبث إلا ساعة، وأداة التشبيه هي (كأن)[25]، كما قال صاحب التحرير: "كأن: المشددة النون التي هي إحدى أخوات إن، وهي حرف تشبيه، ووجه الشبه هو التحقق والوصول بحيث لم يمنعهم طول الزمن من الحشر، وأنهم حشروا بصفاتهم التي عاشوا عليها في الدنيا، فكأنهم لم يفنوا، وهذا اعتبار

بعظيم قدرة الله تعالى على إرجاعهم"[26].

ومن النماذج أيضا قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ** (٧)﴾ [هود: 07]، حيث ورد التشبيه على لسان المنكرين للبعث، فالمشبه هو القرآن، أو البعث على اختلاف المفسرين، والمشبه به هو السحر[27]، يقول الإمام الآلوسي في هذا الموضع: " أي مثله في المذيعة والبطلان، فالتركيب من التشبيه البليغ، والإشارة إلى القول المذكور، وجوز أن تكون للقرآن كأنه قيل: لو تلوت عليهم من القرآن ما فيه إثبات البعث لقالوا إن هذا المتلو سحر، والمراد إنكار البعث"[28]، فهذا ضرب من التشبيه البليغ[29]، لأن الأداة ووجه الشبه محذوفان، فارتقى القرآن بهذا الفن البلاغي إلى أعلى الدرجات، حيث أنه وظفه أحسن توظيف وفي دقة إعجازية، تجعل القارئ للوهلة الأولى لا يدرك خفايا ذلك التشبيه أبدا، ولكن سرعان ما يمعن النظر في ذلك الأسلوب فيكشف وجه الشبه بين المتاشبهين، فيعجب بهذه البلاغة القرآنية العالية المعجزة.

وهكذا نجد القرآن الكريم قد يجعل من تلك التشبيهات عنصرا أساسيا في بناء الجملة، حيث لا يمكن الاستغناء عنها، ولا يتم المعنى بدونه؛ لذا فإن القرآن الكريم قد تميز بالقدرة الفائقة في استعمال الألفاظ الدقيقة الموحية المصورة، والتي يظل فعلها قويا مؤثرا، وبهذا حقق القرآن ما كان يهدف إليه من التأثير في العاطفة والوجدان والمشاعر، فكان من أوقع الأساليب في الترغيب والترهيب، والإطلاع والهداية، إلى غير ذلك من الأهداف التي يسموا إليها البيان القرآني المعجز.

ثانيا: الاستعارة:

وتعد من الفنون البلاغية الراقية، والتي تؤدي المعاني المطلوبة بأوجز عبارة وأجمعها، وقد تحدث أهل الفصاحة واللسن عن علو منزلتها، وشرف قدرها، وفاضت بمزاياها مؤلفاتهم.

قال السيوطي: "اتفق البلغاء على أن الاستعارة أبلغ منه -أي التشبيه- لأنها مجاز وهو حقيقة، والمجاز أبلغ، فإذا البلاغة أعلى مراتب الفصاحة"[30]

وقبل الولوج إلى النماذج وتحليلها، وجب تعريف الاستعارة بشقيها اللغوي والاصطلاحي.

أ- في الأصل اللغوي: مأخوذ من قولهم: استعار المال إذا طلبه عارية كما جاء في قول ابن الأثير: "الأصل في الاستعارة المجازية مأخوذة من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة، وهي أن

يستعير الناس من بعض شيئا من الأشياء، ولا يقع ذلك إلا من شخصين بينهما سبب معرفة بينهما سبب معرفة ما يقتضي استعارة أحدهما من الآخر شيئا؛ إذ لا يغرقه حتى يستعير منه، وهذا الحكم جار في استعارة الألفاظ بعضها من بعض، فالمشاركة بين اللفظين في نقل المعنى من أحدهما إلى الآخر؛ كالمعرفة بين الشخصين في الشيء المستعار من أحدهما إلى الآخر"[31].

نلحظ من قول ابن الأثير وجود الصلة بين المعنى اللغوي أو الحقيقي للاستعارة، ومعناها المجازي، إذ لا يستعار أحد الطرفين للآخر إلا إذا كانت صلة معنوية تجمع بينهما.

ب- الاصطلاح: هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفة عند إرادة المعنى الأصلي. قال الجاحظ وهو من الأوائل الذين عرفوا الاستعارة: " هي تسمية الشيء بغير اسمه إذا قام مقامه"[32].

- ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١)**﴾ [الأنعام: 31]

حيث وقعت الاستعارة في قوله: ﴿**وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ**﴾ (الأنعام: 31)، والأوزار جمع وزر، قال أبو عبيدة: " يقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع، أحمل وزرك أي: ثقلك ومنه الوزير لأنه يحمل أثقل ما يسند إليه من تدبير الولاية، والمعنى: أنها لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها، وجعلها محمولة على الظهور تمثيل[33].

وقيل: الأوزار والخطايا والآثام، قاله ابن عباس، والظاهر أن هذا الحمل حقيقة، وهو قول عمير بن هانئ، وعمرو بن قيس الملائي، واختاره الطبري، في أن عمله يمثل في صورة رجل قبيح الوجه والصورة، خبيث الريح فيسأله فيقول: أنا عملك طالما ركبتني في الدنيا، فأنا اليوم أركبك، فيركبه، ويتخطى به رقاب الناس، ويسوقه حتى يدخله النار، ورواه أبو هريرة - رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى واللفظ مختلف[34].

وقيل: الوزير في الأصل الثقل، ثم قيل للثقل وزر، تشبيها بالجبل، ثم أستعير الوزر للذين تشبيها به ملاقاة المشتة منه، والحاصل أن هذه المادة تدل على الرزانة والعظمة[35].

وقيل: جعل الذنوب، والآثام محمولة على الظهر من باب الاستعارة التمثيلية، فإنه أبلغ في شدة مشقة عذابهم من جهة أن الشيء الثقيل قد يحمل باليد، فإن أفرط حمل على الكتف، فإن أفرط ثقله حمل على الظهر، فشبه شدة مشقة العذاب بأثقل الأشياء المحمولة على الظهور، فتعذر حملها على الأكتاف[36].

- ومن الاستعارة أيضا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)﴾ [الأعراف: 57]، احتوت الآية الكريمة على عدة استعارات منها:

قوله: ﴿ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾، والإرسال في المحبوس إطلاقه، وفي المطلق بعثه[37].

ويقول صاحب التحرير والتنوير: أطلق الإرسال على الانتقال على وجه الاستعارة، فإرسال الرياح هبوبها من المكان الذي تهب فيه، ووصولها، وحسن هذه الاستعارة أن الريح مسخرة إلى المكان الذي يريد الله هبوبها فيه، شبهت بالعاقل المرسل غلى جهة ما، ومن بدائع هذه الاستعارة أن الريح لا تفارق كرة الهواء، فتصريف الريح من جهة إلى جهة أشبه بالإرسال منه بالإيجاد[38].

فمن خلال هذه النماذج نرى كيف أن القرآن الكريم أبدع معجزا في استخدام الاستعارة بمراميها المختلفة، وعبر بها عن المعاني المختلفة بطرق غير مباشرة في أسلوب بليغ وغاية في الفصاحة والإعجاز.

ثالثا: الكناية

الكناية إحدى روائع الأسلوبية التي تجلت فيها آيات الذكر الحكيم، فشرفت بشرف وجوده بين آياته، وهي مظهر من مظاهر البلاغة، وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه ووصفت قريحته، والسر في بلاغتها أنها في صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية وفي طبيعتها برهانها[39].

أ- في الأصل اللغوي: جاء في لسان العرب: " مادة كني، كَنوت وكُنوة وكِنوتُهُ: كنوتة، قال أبو عبيدة كنيت الرجل وكنوُ، .. وكَنَى عن الأمر بغيره يَكنِي كناية: أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وكنَى عن الأمر بغيره يُكني كناية يعني إذا تكلم بغيره مما يستدل عليه نحو: الرفث والغائط ونحوه"[40].

وجاء في مختار الصحاح: مادة (ك ن ي): الكناية أن تتكلم بشيء وتريد به غيره، وقد كنيت بكذا عن كذا، و"كَنوتُ" أيضا "كناية" فيهما، ورَجُل "كانٍ" وقوم "كانون" واكتفى فلان بكذا وهو يكنى بعبد الله[41].

فمفهوم الكناية اللغوي يعني: ذكر الشيء وإرادة غيره، أو كنية الرجل التي يُعرَفُ بها.

ب- اصطلاحا: يعرفها السكاكي بقوله: الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول: "فلان طويل النجاد" لينتقل منه على ما هو ملزوم وهو طول القامة[42].

ويقول عبد القاهر في تعريفه للكناية: "الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه[43]

الكناية غاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه وصفت قريحته، والسر في بلاغتها أنها في صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية وفي طياتها برهانها[44]، لذلك استخدمها القرآن الكريم في آيات البعث بكثرة ومن ذلك:

- ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧)**﴾ [الواقعة: 47].

إن استفهامهم في قولهم: ﴿**وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧)**﴾ [الواقعة: 47]، استفهام إنكاري كناية عن الإحالة -الاستحالة- والاستبعاد[45]، وقد حمل هذا الاستفهام المكنى في طياته من الإنكار مالا تحمله العبارة الصريحة في قوة الإنكار وشدته[46]، وأعيد الاستفهام توكيدا للاستبعاد[47]. فباستفهامهم هذا لا ينتظرون إجابة وإنما هو كناية عن استبعادهم لوقوع البعث وإنكارهم له، وهذه كناية عن صفة وهي التكذيب، والاستنكار[48] وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿**أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧)**﴾.

ومن ذلك أيضا ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)**﴾ [هود: 07].

ففي قولهم: لا يقصدون السحر المعروف وإنما هو كناية عن آخر، وكما قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)**﴾ [هود: 07]، أي: لئن دللت يا محمد على البعث من بعد الموت وذكرت ذلك للمشركين لقالوا هذا سحر، وقولهم: ﴿**إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)**﴾ كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم[49]، وذكر الخازن في تفسيره أنهم لا يعنون السحر المعروف وإنما يعنون القرآن[50]، وجامع القول بين الرأيين أن هؤلاء الكفار بقولهم: ﴿**إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)**﴾ لم يقصدوا به السحر، وإنما كنوا به عن النبي صلى الله عليه وسلم أو القرآن الكريم، وساق لنا القرآن هذه الكناية بهذا الأسلوب البليغ المعبر عنه مقصود هؤلاء مؤكدا ذلك بلام ونون التوكيد في قوله: ﴿**ليقولن**﴾.

فالكناية في القرآن تهدف إلى تبليغ المعاني والمدلولات بأسلوب غير مباشر لافت للانتباه، حيث يترك التصريح بالمعنى مباشرة ويكني عليه ويأتي بما يرادفه ويدل عليه، فيكون أبلغ في أداء

المعنى وأكثر تأكيدا له من التصريح به، لذلك استعمل القرآن الكناية في آيات البعث ليُشعر المخاطبين عامة والجاحدين خاصة بمصيرهم الذي ينتظرهم، عسى أن يتوبوا ويرجعوا إلى جادة الصواب.

الخاتمة:

كانت تلك جملة من النماذج المتعلقة بالنظم القرآني في آيات البعث، وأمثلة من تطبيقات علم البيان، ويمكن بعد عرض الموضوع تسجيل نتائج منها:

- وجود قرابة بين معنى الإعجاز اللغوي والاصطلاحي.
- إعجاز القرآن الكريم هو عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن الكريم، وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توفر ملكتهم البيانية، وقيام الداعي على ذلك، وهو استمرار تحديهم وتقرير عجزهم عن ذلك.
- البيان مصطلح واسع الدلالة والمفهوم في اللسان العربي والقرآن.
- الإعجاز البياني هو عجز الطاقة البشرية العربية على الإتيان ومجاراة الأسلوب القرآني.
- عظمة الأسلوب القرآني واحتوائه على جميع فنون البلاغة مما توصل العقل البشري إلى استنباطه منها، واحتوائه على فنون أخرى تعجز النفس الإنسانية عن اكتشاف مكمنها.
- بيّنت الدراسة أن القرآن الكريم اهتم بالجانب البياني، وذلك بإيراده لمختلف فنون علم البيان من تشبيه واستعارة وكناية، فوظف التشبيه في وصف أهوال يوم البعث بتشبيهه بأمور اعتادها الناس في دنياهم.

الهوامش:

1- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة (نظم)، 578/12.

2- القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2004، ص: 19.

3- الجرجاني، التعريفات، ص: 310.

4- ابن فارس، أحمد: مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، د ط، 1979م، 1/: 167-168.

5- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر، القاهرة، مصر، د ط، د ت، 68/1.
6- بيسوني عبد الفتاح فيود، علم البيان، دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط3، 1432هـ-2011م، ص: 39.
7- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الطب، باب إن من البيان سحرا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، دط، دت، 39/4.
8- محمد بن ادريس الشافعي، الرسالة، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، د ط، 1986م، ص: 21.
9- أبي عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت-لبنان، ط1، د ت، 1/ 76.
10- المصدر نفسه، 75/1.
11- الجاحظ، البيان والتبيين، 76/1.
12- ابن منظور، لسان العرب، 370/5.
13- الصابوني، صفوة التفاسير، قصر الكتاب، البليدة، دار الشهاب، باتنة، ط5، 1411هـ-1990م، 557/1.
14- ابن منظور، لسان العرب، 2/ 116.
15- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج: 1نص: 162، ابن فارس، مقاييس اللغة، 1 /166.
16- الزبيدي، تاج العروس: 168/1.
17- علي أحمد عبد العالي الطهطاوي، الحياة بعد الموت، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1424هـ-2004م، 267/1.
18- محمد بن صالح العثيمين شرح العقيدة الواسطية، إعداد: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط2، 1424هـ-2003م، ص: 52.
19- عبد السلام التونجي، الإيمان والدين في القرآن، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط1، 1423هـ-1994م، ص: 124.
20- الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت-لبنان، 1402هـ-1982م، ص: 19-20.
21- العلوي، يحي بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، د ط، 1402هـ-1982م، 226/1.
22- ابن منظور، لسان العرب، مادة (شبه)، 503/13.
23- القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 164.
24- عبد الفتاح لاشين، البيان في ضوء أساليب القرآن، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1985م، ص: 78.
25- المرجع نفسه، ص: 420.
26- محمد طاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1403هـ-1983م، 183/29.
27- بدرية بنت عثمان، من بلاغة القرآن الكريم في مجادلة منكري البعث، دار الراية للنشر والتوزيع، ط1، 1417هـ، ص: 422.
28- الآلوسي، شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1415هـ-1994م، 214/2.
29- يحي بن محمد العلوي، الطراز، 76/5.
30- السيوطي، جلال الدين، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي البجاوي، دار الفكر العربي، بيروت-لبنان، دط، د ت، 284/1.

31- ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق، أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط2، 1404هـ-1984م، 110/1.

32- عبد اللطيف شريقي وزبير دراقي، الإحاطة في علوم البلاغة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1ن2004م، ص: 14.

33- محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، دار الفكر، 1401هـ-1981م، 111/2.

34- نفسه، 111/2.

35- أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، دار الفكر، بيروت- لبنان، ط2، 1403هـ-1983، م3، ج 7/ص104.

36- يحي بن محمد العلوي، مرجع سابق، 48/4.

37- أبو الفرج عبد الرحمان ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، تصحيح وتعليق: السيدة مهر النساء، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط1، 1394هـ- 1974م، 1/ 66.

38- ابن عاشور، مصدر سابق، 178/8.

39- السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط6، د ط، د ت، ص: 280.

40- ابن منظور، مصدر سابق، مادة (كني)، 233/15.

41- زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنفي الرازي، مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت صيدا-لبنان، ط5، 1420هـ-1999م، 274/1.

42- السكاكي، مفتاح العلوم، 1/ 402.

43- أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، دار المدني، جدة- المملكة العربية السعودية ومطبعة المدني بالقاهرة- مصر، ط3، 1413هـ-1996م، ص66.

44- جواهر البلاغة، ص280.

45- ابن عاشور، مصدر سابق، 307/27.

46- بدرية بنت حسن العثمان، مرجع سابق، ص467.

47- ابن عاشور، مصدر سابق، 307/27.

48- بدرية بنت حسن العثمان، مرجع سابق، ص467.

49- أحمد القرطبي، مصدر سابق، 3237/4.

50- الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، 180/3.